

قضية الحريم وتنقص الصورة عند الآخر

أ.نوال عاتي

جامعة عنابة

الملخص: نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تتبع قضية الحريم في الأدب العربي وصور حضورها في المخيلة الإبداعية العربية، ثم تمثّلها في المتخيل الإبداعي الغربي، حيث لفظة الحريم تتجاوز في الاستخدام العربي والغربي الصورة النمطية والمعنى المسطح، وهي قضية- الحريم- طالما شغلت الباحثين القدامى وتعمقت في الطرح مع الدراسات الحديثة، وبخاصة في النقد النسوي والدراسات الجنسانية عموماً.

الكلمات المفتاحية: الحريم، الآخر، العالم الشرقي، العالم الغربي

Résumé: L'objectif de cette étude de retracer la cause du harem dans la littérature et des photos de sa présence dans l'imagination créatrice des Arabes, puis représentations créatifs ouest imaginaire, où le mot harem dépassant dans l'utilisation arabe et occidentale du stéréotype plat et sens, un question - Alharim- aussi longtemps occupé les anciens chercheurs arabe et approfondi dans l'introduction en bourse avec des études modernistes, en particulier dans la critique et des études de genre féministes en général

Mots clés: le harem, l'autre, le monde oriental, le monde occidental

تمهيد:

تعتبر إشكالات الواقع الحركي الحقيقي لظهور المفاهيم أو تلاشيها، و يتم هذا من خلال إعادة صياغتها إما بالفهم العلمي أو التزييف الايديولوجي، و ليست قضية الحريم استثناء من هذا القانون حيث تعمق هذا المفهوم -أي الحريم - باتساع المطالب الاجتماعية عامة و الانفتاح النسبي على ثقافات العالم المتحضر، كون الحريم عالم رمزي مكثف مشبع بالإيجاءات و الدلالات الجنسية خصوصاً عند الآخر إذ عمدت المخيلة الغربية إلى "تشويه صورة المرأة و تقديم مفهوم خاطئ لمصطلح الحريم حيث ربطوه بالمتعة و الجنس والاستبداد الذكور و الاستسلام الأنثوي"(1).

لذا راحت أيادي المبدعين و الفنانين الغرب تتسابق و تنبأ في كيفية تصويره جامعة بين ألوان الواقع وفرشاة الخيال في نحت فسيفساء هذا العالم جاعلة منه "منجماً لا تنضب خزائنه من الرومانسية الحسية للحريم الشرقي"(2)

فالثقافة الغربية تنشئ دلالة تختلف عن الدلالة المعروفة في التداول الثقافي الشرقي في وجوه كثيرة كما تصرّح بذلك "فاطمة المرينسي" و تسعى إلى إثبات فرضيتها بوسائل شتى لان القراء الغربيين كونوا تلك الدلالة عن طريق مصدرين :

- ما دس في مصطلح "الحريم" من أفكار إيديولوجية، و معان تحيلية وهمية، إذ كان الصراع الحضاري الثقافي بين الشرق و الغرب يغير كثيراً من طبيعة المفاهيم الخاصة بالطرفين و تلك مسألة على قدر كبير من الأهمية . فقد بذل مؤرخو الفلسفة و لعاملون في الميادين الثقافية الأخرى جهوداً قيمة في هذا الباب ليبينوا الدلالات الجديدة التي تكتسي المصطلحات الخاصة بطرفي النزاع والمجولة إليها بسبب سوء الفهم.

- كذلك البعد الفني و دور حكايات ألف ليلة التي يجتاحها عالم الحريم، باعتبارها مساحة باتت متوفرة و قادرة على الجهر بخصوصية هذا العالم لأنه أضحى أفقا مشرعاً على الجهر الأفكار و المساءلات كما لو كانت ألف ليلة و ليلة الماء الذي يستولده من رحم سؤال يخص بتعدد الأسئلة لتتكشف الصورة المتلبسة عن عالم الحريم لدى الغرب الذي حركها الموقف الواقعي أثناء لقاءها الفعلي بهذا الآخر - أي الصحفيون - مؤكدة أن ألف ليلة و ليلة التي وله بها الآخر لا شيء ألا لأن ألف ليلة و ليلة صورت الأبعاد الأيروتكية في عالم الحريم الشرقي فاكتمب مفهوم الحريم هذه الحمولة و أضحت هوية لها فرسخت في الفكر الغربي(3).

1- الحريم في المفهوم اللغوي :

أ- جاء في لسان العرب متشعب الدلالات و متباين المعاني نستظهرها كالآتي: (4)

- يدل على المكان : "الحريم فناء المسجد ، و حكى عن ابن واصل ألكلابي ، "حريم الدار " ، ما دخل فيها مما يغلق عليها بإها وما خرج منها فهو الفناء.

وفي الحديث "حريم البئر أربعون ذراعا" و هو الموضع المحيط بها الذي يلقي فيه تراها وسمي بها لأنه محرم على غيره التصرف فيه - يدل على الأصل ، وصلة القربى "و حرم الرجل " عياله ونسأؤه و ما يحمي و هي المحارم واحدها محرمة و محرمة ، "ورجل محرم" محرم تزويجه و الحرم ذات الرحم في القرابة ، وفي الحديث الشريف " لا تسافر المرأة إلا مع "ذي محرم". بمعنى الذمة و حرمة الرجل ، حرمه و أهله " و حرم الرجل و حريمه " ما يقاتل عنه و يحميه"

ب- وجاء في معجم المقاييس في اللغة كالآتي (5):

- دالا على المنع : الحريم: "الذي حرم مسه فلا يدنى منه" وكان العرب إذا حجوا القوا ما عليهم من ثيابهم ، فلم يلبسوها في الحرم، ويسمى الثوب إذا حرم لبسه "الحريم"

ج - وترد في المعاجم الغربية كالآتي:

الحريم: (اسم مؤنث/ لفظ عربي)، مكان خاص بالمرأة في البلاد الإسلامية أو مكان لمجموعة من النساء مقيمات فيه . (6)

تكشف هذه المفاهيم اللغوية لمصطلح الحريم تنوع في الدلالات بين البعد المكاني و صلة القربى /العلاقة المقدسة/أو ان صح التعبير البعد المكاني المعنوي المرتبط بالرحم و ما خرج من أصل واحد .

لذا تتم كل هذه الإيحاءات المربوطة فيما بينها بخيط رفيع عن دلالة صلة القربى /القدسية (المؤدية للقداسة) والمنع (أي منع الآخر من الاقتراب منها) أو التعدي على هذه المساحة ؛ أي حرام تحكيمي - هو الحمى - (7)

2 - الحريم في المفهوم الاصطلاحي :

الحريم وصف للنساء اللواتي يسكن تحت وصايا الرجل داخل إطار أو مكان معين خاص "E.W.Lane: بمن ، فهو بحسب "ادوارد وليام لين " مجموع نساء العائلة وهو أيضا الحيز المكاني الذي شغلته في الدار" (8) ، وتتقارب معه "فاطمة المرينسي " حيث تقول : "الحريم يحيل لدي على العائلة قبل كل شيء" (9) وبهذا ارتبط الحريم بالمكان في تجلياته (الاجتماعية ، الثقافية ، الأيديولوجية) لاسيما القصور الشرقية (*) إذ كان هناك جناح خاص بالحريم في الحريم في الديوان محاط بقنوات وصل وممرات سرية ، يحرسها زنوج يمنع على الجميع دخولها ، ما عدا النساء وأفراد عائلاتهم المقربين جدا و قد أحكم هذا الجناح بأبواب ضخمة أعطيت مفاتيحها إلى رئيس الحرس. (10) .

كما ترد تعريفات " للحريم " مستقاة من رحم "ألف ليلة وليلة" التي تمثل بان وراما الحياة الاجتماعية العربية حيث تتجلى فيها بنية الحريم كالآتي: لفظيا يجمع بين لفظيا دلالتين: "النساء والحرام" ، ليكون معنى مركبا هو "النساء المحرمات" (11) ، ثم إن لفظة الحريم " لا تشير بالضرورة إلى مجموعة نساء بل يمكن أن تطلق على المرأة الواحدة وهي الزوجة بالذات (...). لكنها لا تطلق على الأمة / المملوكة / الجارية إلا إذا دخلت مع الزوجة في الانتماء إلى الرجل أو كن مجموعة إماء لا واحدة (12).

فالحریم بمنظار " ألف ليلة وليلة تتعري بنيتها الداخلية من خلال قائمة من الممارسات والعلاقات المتضادة القائمة بين المفهوم والممارسة، فالحرية أو "السيدة" مضيق عليها وإطلاق لفظة "حرية" عليها ينعكس ليصبح قيودا أخرى، أما الجارية المسلوقة الحرية فعليا فليس ثمة سبب يدعو الرجل غالى بذل جهد آخر لا متلاكها، ولهذا فهي حرة في أفعالها ويسمح لها ما لا يسمح للحرية باعتبار أن الحرية والعبودية تظل مرهونة بالمركز/الرجل (13)، و بهذا مثلت منظومة الإماء والجواري تشكيلاته في علاقتهن بالسيد حيث كان اكتساب التربية والمواهب الفنية وسيلتهن الوحيدة لإثارة انتباهه (14)، ويكفي أن" الجاحظ " -الذي عاشا

في القرن الثاني للهجرة - له عدة أبحاث عن وضعية الجارية فيؤكد أنه من العيب أن نفكر بان امرأة موهوبة ومتعلمة لن نستعمل مواهبها للسيطرة على سيدها مما يولد بينهن التنافس والصراع أو على حد تعبير فاطمة المرنيسي " ثورة عميقة و مستمرة لأنها عزفت على الوتر العاطفي والجنسي ،الغرامي الشهواني "(15) .

وبهذا تباينت دلالة مصطلح الحريم واختلفت، إذ تبدى تظاهراته كمصطلح يحيل على المكان الخاص لمجموع نساء العائلة أو الزوجة من منظور اجتماعي، وكخطاب يخترق جسد النص الأدبي عموما و ألف ليلة و ليلة خصوصا و التي أكسبته حمولة ثقافية (*)، غير أنها اتفقت جميعا - بأن الحريم - مرتبط بالحدود والعتبات التي ارتبطت بسلطة الذكورة .

II- صورة الحريم الشرقي في المنظور الغربي:

ينهل العقل الغربي في نحت صورته عن " الحريم الشرقي " بعودته إلى التاريخ العربي و نبش التراث الذي احتوته بطون الكتب العربية؛ إذا كانت في أحيان كثيرة -روافد استقى منها المستشرقون و الرحالة أفكارهم للتكون معرفتهم عن المجتمع العربي و أوضاعه الاجتماعية و السياسية والثقافية ... الخ. لان هذه الكتب التراثية أشبه بالوثائق التاريخية الكاشفة للبنية الاجتماعية. وقد كانت ترجمة "ألف ليلة وليلة" أو "الليالي العربية" حسب تعبير "ريتشارد بيرتون" "بأنوراما متكاملة للحياة العربية الإسلامية في عصرها الزاهي (16) حيث تأثر الغرب بما ورد فيها من حكايات أسرت الخيال الغربي؛ وصورا متباينة عن الحريم الشرقي.

فبما وشت لهم ألف ليلة وليلة عن عالم الحريم ؟ وكيف صورت لهم أسرارهم ؟ لقد ساعدت ترجمة "ألف ليلة وليلة" من فتح بوابة الشرق التي ظلت الأعناق تشرب وتطوق " أن كتاب "الليالي" أكثر الكتب شيوعا في العالم بما (...) Hunt لرؤيتها كما بين "هنت حملته من حكايات سلاطين طغاة؛ ونساء شبقات من النوع الذي سكن منظومة شهرزاد وشهريار الساحرة بحماس كبير بل منقطع النظر من قبل الصفوة المثقفة و جمهور القراء بعامة "(17)

لتتولد صورة سلبية عن المرأة الشرقية ؛ الذي طوقها "نظام الحريم المعادل للعزل الاستعبادي ؛ حسب تعبير "ولتر باجت" (18) ؛ فالحريم يستثير انطباعات سلبية في العقل الغربي ما تلبث ان تستحضر قائمة طويلة من الممارسات نذكر منها ما يأتي

أ-المتعة والجنس :يعتبر عالم الحريم موطن للمتعة والجنس فقد مثل الحلم الذي يتمناه الرجل الغربي حيث تم اعتباره "إقليم الشذوذ الجنسي حسب تعبير "بيرتون"(19) وقد اكتسب هذه التهمة لان النساء في الحريم مدار حياكن الرجل ؛ ومن ثم فهن في حالة استنفار دائم وفي حالة شهوانية يقظة من أجل الاستحواذ عليه ؛ حيث كان الخليفة أو السلطان محاط بالجوار والإماء ؛ ليتمتدح بهذا "بيرتون" الموقع الأبوي الذي ينبغي أن يفوز " بعشق و محبة أكثر من زوجة واحدة"(20) تحت مظلة تعدد الزوجات .

وتنبعث صورة "المتعة والجنس" على يد المبدعين و الفنانين ، غير أنها تتعري أكثر و تنكشف - في لوحاتهم - أين تم تصوير الحريم الشرقي في شتى تجلياته ، ساهمت ألوان الواقع وفرشاة الخيال في نحت فسيفساء هذا العالم عبر مراحل التاريخ المتباينة ، فأضحى على غرار هذه الأعمال منجما لا تنضب خزائنه من الرومانسية الحسية .

ومن بين هذه اللوحات نجد لوحة "انجر" بعنوان "الحريم التركي" حيث تم تصوير جمهرة من الوصيفات العاريات اللاتي يكشفن مواطن جمالهن الفاتر على حافة حوض ، يحيط به

جدران دون نوافذ (...) كما رسم قبلها لوحة بعنوان "الوصيفة الكبرى" (*) وكان هذا سنة (21)، حيث وصفها "روبر روز

تبلوم " **بقوله :Grand Odalisque 1814 La

"كائنة الحريم اللاهية التي لم يلطخ الغبار أقدامها قط، الوصيفة المستسلمة التي تبدو كأنها لا توجد هنا إلا لبعث المتعة فينا (...) إنها ترحل في بذخ مزخرف يحفها الطلس والحرير والفرو والريش." (22).

و من هنا كانت "الحريم" وسيلة وأداة لإثارة المتعة واللذة اللامتناهية لدى الغرب ، و هذا ما يفسره الاهتمام بالشكل الخارجي من لباس شرقي (كالحرير ، الفرو...الخ) والحمامات التي اشتهرت بها الثقافة الشرقية والتي صورتها أغلب اللوحات الفنية الغربية بانبهار منقطع النظير لتظل قابضة و صامدة في الفكر العربي، الذي أبى ألا يفارقه كلما طرقت يده ريشة الإبداع الفني أو الأدبي .

ب-الاستبداد الذكوري و الاستسلام الأنثوي:

يمثل الحريم بمنظور الغرب أرضا خصبة للاستبداد و الظلم و العنف فنجد "مارتنو" ترى فيه "جسيم حقيقي موجود على الأرض" (23)؛ مبنية أن سببه نظام تعدد الزوجات الذي يعيق ممارسة الحيات الطبيعية ، في غياب الوعي و الحرية ليصبح معادلا للعقم و سببا لكل الشرور كالخيانة...الخ مستندة على زيارتها الفعلية لقصر من قصور القاهرة و رؤيتها لأجنحة "الحريم" لتشبه معانائهن كونها تفوق كثيرا "الآلام الموجودة في مدارس الصم و البكم ، ومصحات المجانين وحتى السجون" (24) وبهذا يشكل مفهوم الحريم لدى الآخر -الغرب- عالما من الاستبداد و العنف الممارس ضد "المرأة" ، فأصبح مرادفا لفكرة " المرأة الحبيسة " بهدف إسعاد الرجل ، فيظهر عالم الحريم " نظاما طغيانا بلا إنسانية ؛ توسم فيه المرأة الشرقية في الأدبيات الرومانسية و غيرها بوصفها مخلوقا محجبا وغير محجما مستكينا بلا حول له ولا قوة ؛ مخلوقا ينتمي إلى حريم أحد الرجال الأثرياء الحاكمين " (25) .

ومن هنا استندت الرؤية الغربية للحريم الشرقي بناء على مرجعيات تاريخية مختزنة في التراث العربي ؛ والتي لا ينكرها الواقع؛ غير أنها مثقلة بالتشويهات و التعميمات المدفوعة بخلفيات نذكر منها ما يأتي :

- التزعة الاستعمارية؛ والتي بينها "ماير" بقوله : "لقد بطنت هذه النصوص بنية قصصية تكون فيها محاولات الفاعل "الذكر" لتحرير المفعول به "المؤنث" من طغيان الحريم ، قد أعيقت أو أوقفت من قبل طاغية أبوي غمطي يسد أو يلجم اندفاع القضية نحو امتلاك المرأة حريتها" (26) .

وبالتالي فإن سلبية النظام الاجتماعي الهش الذي يعريه و يفضح ثغراته عالم الحريم ، فيجعل فرضيتنا تدخل الرحولة الغربية أمرا لا مفر منه بغية الإصلاح و التوجيه ليمارس الغرب / الذكورة ؛ هيمنته على الآخر / المؤنث / المحجب / الشرق ؛ لتطفو على السطح صورة خضوع الشرق لمبدأ الغرب أين هيمنت هذه الصورة في المخيال الغربي للأسباب التالية:

- السمة الغرائبية التي يختزنها "عالم الحريم" مبطنه في طقوسه ؛ مما دفعت الآخر / الغرب إلى الوله و الافتتان بها فنجد مثلا الحمامات الشرقية " تمثل طقسا حسيا و نرجسيا و تخلق هوة بين حقيقة الإسلام و العالم المسيحي * . لدى المستشرقين - خصوصا الذين زاروا المشرق - ويفصح "جاك" بقوله " إن للحريم طقوس (...) كأن يتندى بالحمام ، و غيرها . " (27) وبهذا يحضر عالم الحريم ؛ في الكتابات الاستشراقية مشحونا بحمولة ايروتيكية حيث يتم إضفاء بعد جنساني في جو من الغرائبية المصاحبة له .

- السقطات التاريخية التي أثبتتها سلوكيات بعض السلاطين و الأباطرة المسلمين في زمن ما ؛ فتم تصنيع مفهوم "الحريم" كهوية ثقافية لا سيما أنه ارتبط بالخاصة دون العامة ؛ سواء في شكله الواقع من (قصور زاهية وحائق خاصة) أو في صيغته الخيالية كون الإبداع مرتبط بتاريخ الملوك والحكام / أصحاب البلاط ؛ فمثلوا سدنته و حراسه. (28)

ومن هذا المنطلق تبقى صورة الحريم بالمنظور الغربي تتجاذبا في غالب الأحيان رؤى إيديولوجية أو نوازع ذاتية وتتضافر في نسجها فينضح بها إبداعهم و فنههم ، إذ شكل الحريم لدى الآخر منبععا تتولد منه القصص الخيالية صانعة صورا فتنازية عن عوالم الترف و الجنس ؛ فرسمت اللوحات و كتب الروايات و انتقلت كلمة الحريم إلى معظم لغات العالم و مر تاريخ كأنه سحابة أصبح الحريم فيها جزء من الماضي وتم إنشاء المتاحف له كي تحتضنه كصنم جاثيا تتعبده كلما استدعتها الحاجة و نازعتها الأهواء و الرغبات.

أما في الثقافة العربية فقد أصبحت الحريم بديلة عن كلمة النساء التي - وردت في القرآن الكريم - وتحولت الثقافة الإسلامية فيما يتعلق بالمرأة إلى " ثقافة الحريم " ؛ فأصبح لدينا مجتمع الحريم سياسيا و دينيا وتم أسلمة ثقافته ليقدم ؛ حيث تحول كل بيت إلى قسم من الحريم لأنه رمز للصحة الأخلاقية - لاسيما - عند احترام الحدود فتغدوا ثقافة الحريم شبيهة بحكايات البروكست (*).

قائمة المصادر و المراجع:

- 1- ينظر، محمد الدعيمي، الاستشراق الاستجابة الثقافية للتاريخ العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006، ص92
- 2- ينظر، فاطمة المرنيسي، العابرة المكسورة الجناح (شهرزاد ترحل إلى الغرب) ترجمة فاطمة أوزريل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002، ص11
- 3- ينظر، ناظم عودة، نقص الصورة، تأويل بلاغة السرد، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 2003، ص45-46
- 4- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق، عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، مج 12، ط1، 2003، مادة [ح ر.م]
- 5- ابن فارس معجم المقاييس في اللغة، تحقيق، شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، لبنان، بيروت، ط2، 1998، مادة [ح.ر.م]
- 6- la petit Larousse ed France 1984 p 156
- 7- يوسف شلحد، بني المقدس عند العرب قبل الإسلام و بعده، تعريب، خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص28
- 8- ينظر، فاطمة المرنيسي، العابرة المكسورة الجناح (شهرزاد ترحل إلى الغرب)، 23، *
- *- أشارت العديد من الدراسات على أنها قسم من بين ثلاثة أقسام يتكون منها القصر العثماني (القسم الخارجي، القسم الداخلي /الحرم أو الحريم لتصبح دلالة على أنه جزء خاص من القصر يعيش فيه السلطان مع أهله .
- 9- ينظر، ناجي عويجان، تطور صورة الشرق في الأدب الانجليزي، ترجمة، تالا صباغ، مراجعة، سعيد المولى، مركز الدراسات العربية، بيروت، ط1، 2008، ص146
- 10- نورة فرج، ارتباكات الهوية أسئلة الهوية و الاستشراق في الرواية العربية الفرنكوفونية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007، ص21
- 11- فاطمة المرنيسي؛ العابرة المكسورة الجناح؛ ص 55
- 12- م ن ؛ ص 56
- 13- السلطانات المنسيات (نساء رئيسات دولة في الإسلام)، ترجمة عبد الهادي عباس وجميل معلي، دار الحصاد للنشر و التوزيع، سوريا، دمشق، ط2، 1998، ص80
- *- كالحالة إلى عصر الإماء و الجوّاري، كالقصور و السلاطين و الترف و البذخ .
- 14- فاطمة المرنيسي، العابرة المكسورة الجناح، ص 23
- ** -نقد بالحجاب، الحدود و العتبات؛ وهو مصطلح استعملته فاطمة المرنيسي، (الحجاب المؤسساتي).
- 15- محمد الدعيمي؛ الاستشراق، الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، ص13

16- م ن، ص 90

17- م ن، ص 91

18- محمد الدعيمي: الاستشراق، الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، ص 96 ، the book of the thous and nights and night نقلا عن

19- م ن، ص 92

*تستخدم لفظة اي الوصيفة :لنعت المرأة المستعبدة في الحريم ؛و هي كلمة تركية ذات إيجاء على المكان بحيث أن تعني الغرفة حيث تقول لالف كروي - كاتبة تركية- " زلدت في حريم أحد البشوات و ان لفظة أودليسك تعني حرفيا امرأة الغرفة .

20- فاطمة المرنيسي ، العابرة المكسورة الجناح ، ص 114

** أستاذ تاريخ الفن بجامعة نيويورك.

21- فاطمة المرنيسي، العابرة المكسورة الجناح ، ص 120

22- محمد الدعيمي ،الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي ص 99 نقلا عن harrit matineau ,easterne life and past

23- م ن ، ص 98

24- م ن ، ص 87

25 mayer i know the not , i ioathe the raice : romantic

- م ن ، ص 140 orientalisme in the eyes of the other

*المسيحية أدانت الحمامات و اعتبرتها موطنًا لاقتراف الذنوب و الدعارة ، لأنها لديهم مكان للاختلاط بين الجنسين على اختلاف الحمامات العربية

26- فاطمة المرنيسي العابرة، المكسورة الجناح ، ص 116

27- م ن ، ص 115

28- ينظر ، م ن ، ص 31

*****فرشان أحدهما طويل و الآخر قصير ،الفراش القصير يفترشه الطويل و الفراش الطويل يفترشه القصير ،و تبتدئ لغة القتل لقاطع الطريق الذي قد يكون لغة ،ثقافة ،إنسانا ...الخ .